الصعود الى المئذنة وما بين النكبة والنكسة

بقلم:جميل السلحوت

"الصعود الى المئذنة" هي الرواية الخامسة التي تصدر للدكتور أحمد حرب، وقد صدرت في– شهر أيار ٢٠٠٨ – عن دار الشروق للنشر والتوزيع في رام الله وعمان ، وسبقتها:

1.حكاية عائد عام ١٩٨١

2.اسماعيل عام ١٩٨٧

3.الجانب الآخر لأرض المعاد عام ١٩٩٠

4.بقايا عام ١٩٩٧

يُهدي الكاتب روايته إلى والديه " إلى والديّ ... كما ربّياني صغيرا " ص٥ وبعد قرائتي للرواية ألحّت على عقلي وفهمي أن هذا الإهداء لم يكن عفوياً، بمقدار ما كان مرتبطاً بمضمون الرواية، هذا المضمون الإشكالي لكثرة التداخلات فيه، إلّا أنني رأيتُ فيه ما يشبه السيرة الذاتية للكاتب نفسه، ولا ضير في ذلك، فكل أديب يكتب أو يعكس شيئاً من حياته في نتاجه الأدبي، والسيرة الذاتية للمؤلف هنا تتشابه كثيراً مع سيرة أبناء جيله، فهو المولود في العام ١٩٥١ في الظاهرية جنوب مدينة الخليل، يشكل نموذجاً لجيل المواليد الفلسطينين بعد نكبة الشعب الفلسطيني في العام ١٩٤٨ وهو بهذا لا يكتب سيرة ذاتية بمقدار

ما يكتب سيرة شعب منكوب، أو بالأصح عن الفترة ما بين النكبة في العام ١٩٤٨ وما سموها " النكسة " في حزيران ١٩٦٧، أيّ ما بين خسارة الفلسطينيين ٧٨,٤% من أرضهم في العام ١٩٤٨ وخسارتهم لها كاملة ١٠٠% في العام ١٩٦٧.

وهو هنا يخرج من الخاص الى العام، فجيل والديه هو الجيل الذي عاش النكبة بكل تفاصيلها وويلاتها، وجيل الكاتب هو الذي أُلقيت عليه النتائج الرهيبة لهذه النكبة، ليتداخل الجيلان في حمل مصائب حروب عدوانية لا تستهدف الشعب الفلسطيني وحده، بل تستهدف الأمّة العربية بأكلمها، وشاء قدر الفلسطينيين أن يكونوا رأس الحربة فيها.

ويُصدّر المؤلف روايته بقصيدة "المجيء الثاني" للشاعر الإيرلندي وليم بتلر ييتس، واختياره لهذه القصيدة ليس عفويا هو الآخر، فهي تتكلم عن الفوضى الجامحة التي تجتاح العالم، وعن انهيار القيم الانسانية، والابتعاد عن الإيمان مما يستدعي مجيء المسيح المنتظر، غير أنّ المؤلف يذيل قصيدة الشاعر الإيرلندي بقوله " بمناسبة بدء الأربعينية الثانية للسقوط " وهذه إشارة غير خفية بأنّ المؤلف بدأ كتابة روايته هذه في العام ١٩٩٨ أي في الذكرى الأربعين لنكبة فلسطين وشعبها، أو ربّما بدأها في العام ٢٠٠٧ الذكرى الأربعين لحرب حزيران ١٩٦٧ العدوانية، وما أعقبها من سقوط متتابع لأمتنا في أكثر من هزيمة.

وأديبنا الدكتور أحمد حرب يقسم روايته تحت عناوين قصصية روائية متداخلة ومتتابعة هي:

1.صنع الجابري: وهي مغارة كبيرة عظيمة قديمة شهدت أحداثا جساما .

2.قنديل : وهو اسم طالب ذكي حاذق، مشاغب من جيل السارد، استشهد لاحقا في مظاهرات السموع.

3.شاور يقظان: شخص متدين إلى درجة التصوف اللا واعي .

4.يسير: وهو اللفظ العامي للأسير.وهو السارد في الرواية .

5.أبو مهاوش: هو عمّ السارد، كبير العائلة وهو شخص تقليدي لا يقبل الضيم، أطلق رصاصة على رأس فرس قائد المخفر ، ممّا أدّى الى تعذيبه حتى قطعت رجله، كما أنّ المخفر أجبر عائلته على دفع "ديّة الفرس" ، ثلاثة أضعاف ديّة انسان .

6.رحانة: صبية من قرية العين، حملت من قائد المخفر مما أجبره على الزواج منها، قتلت صباح الاثنين ٥-٦-١٩٦٧ أي ساعات بدء الحرب من قبل شقيقها.

7.كبير النّور: وهو كبير مجموعة من النّور كانوا يسكنون أطراف القرية، والتجأ اليهم صالح عبد الرحمن لأنه كان يهوى الرقص والغناء .

8.حقائق وأكاذيب: وهي تبين لنا التناقض في الطروحات بين الدول العربية وحتى بين الشخصيات " الوطنية ."

9.سعفة وسراج: وفيها عودة الى الكهف العظيم – صنع الجابري .-

10.ديوان اليقظان: وهو ديوان عائلة السارد الذي شهد استقبال قائد المخفر، وعمل صلحة معه رفضها المتضرر الأول "أبو مهاوش" وكان القوم يجتمعون فيه يتمازحون، ويتعايرون ويتسامرون فيه.

11.لا تصالح: وفيه دعوة السارد عمّه ليرفض المصالحة مع قائد المخفر .

12.دودي القعقاع: شخص أبله أو معتوه، شخصية محيّرة وذات دلالات وربما كان جسوسا.

13.خطبة اليقظان الأخيرة: وهي خطبة الجمعة في خامس أيّام حرب حزيران ١٩٦٧ ولم يكن الخطيب مصدقا لما أذاعه راديو اسرائيل عن نتائج الحرب.

المقابلة والطباق :

لقد كان لافتا أنّ المؤلف الذي يروي بقدرة واقتدار قد استعمل "المقابلة والطباق" في روايته بشكل لافت جدا مثل :

-حر الصيف وبرد الشتاء، الدنيا والآخرة، الثواب والعقاب، الحسنات والسيئات ص ١٣.

-الهيبة والفرح، الليل والنهار، الحرام والحلال. ص١٥

-الطرب والغلظة العدائية .ص ٢١

-الخير والشر، اليمنى واليسرى، الجدّ والهزل. ص ٢٢

-أهل اليمين وأهل اليسار. ص ٢٧

-الجنة والنار، اليُسر والعُسر ص ٢٨

-يقظان ونعسان، الماضي والحاضر. ص ٢٩

-الرب والشيطان ص ٣١

-شجاع وجبان. ص ٣٨

-يتعبون ويستريحون .ص ٤٧

-المثقف والأهبل. ص٥١

-الزاني والمحصن. ص٦٣

-السبع والضبع ، حاميها وحراميها. ص ٧١

-الانشداد والامتداد. ص ٧٣

-حقائق وأكاذيب. ص ٨٢

-الموت والحياة ص ٨٣

-الحلال والحرام ، الشباب والشيوخ ص ٨٧

-صعود وهبوط ص ٩٩

-فرح وحزن ص ١٢٢

-النصر والهزيمة ، الصدق والكذب ص ١٤٠

مواقف وأحداث:

إن هذه المقابلات وهذا الطباق التي جاءت في الرواية قد أعطتها أبعادا جمالية لا تخفى على القارئ الحاذق، كما أنّها تقرب المعنى والمراد التي سعى إليها المؤلف .

ويلاحظ أنّ المؤلف قد تطرق الى مواقف حاسمة ومحزنة وقاتلة دون إثقال على القارئ، فقد جاءت في سياق الرّويّ كما لو أنّها عفويّة، مع أنّها ليست كذلك، فمثلا مذبحة الدوايمة في العام ١٩٤٨ وهي إحدى المذابح التي تعرض لها الشعب الفلسطيني من قبل الصهاينة لإجبار الآخرين للرحيل عن وطنهم لتحقيق مقولة " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ولم تنل حظها وقريناتها الأخريات في الإعلام كمذبحة دير ياسين مثلا، ومن التجأ من المناطق المنكوبة الى المساجد للاحتماء فيها كونها دور عبادة مسالمة، ذُبحوا في هذه المساجد، ومن التجأ الى الكهوف ذُبح فيها أيضا، ومن بقي في بيته ذُبح فيه هو الآخر أيضا.

ومن هذه المواقف هي انشغال بعض رجال الدّين في اليمين واليسار، واستغلالهم فضائل اليد اليمنى والرجل اليمنى على مثيلتيهما اليسرتين من أجل مهاجمة الفكر اليساري، بطريقة كانت فيها طرافة خصوصا لدى الصبية والفتيان، ومنها حالة الفقر والحرمان وسوء الإدارة والتنظيم مثل استعمال ملعب مدرسة المتنبي في الخليل سوقا للماشية والدواب أيّام الجمعة، وكذلك قضية ممارسة الجنس مع البهائم – الحمير – وهي قضية كانت ولا تزال موجودة مع أن الكثيرين يتهربون من الاعتراف بها.

وقد تطرق الكاتب الى ظاهرة موجودة في المدن الفلسطينة منذ عهد الانتداب ولا تزال عندما قال:" العمارة في المدخل الشمالي، والمدرسة في المدخل الجنوبي، والمسجد بينهما في الوسط " ص٤٧ والعمارة هي مقر الشرطة والسجن. ويقول السارد :" لقد طوّعوا أنفسهم لسلطة الحكومة في العمارة، وسلطة الإمام في المسجد،وسلطة المدير في المدرسة" ،ولكلّ من هذه السلطات الثلاثة سطوته

وسلطته التي لا ضوابط لها، وتشترك ثلاثتها في فرض الأوامر وإيقاع العقاب على الآخرين بسبب أو بدون سبب .

اسم الرواية:

جاء اسم الرواية من قضية حدثت للسارد وهو طفل قبل أن يصل العاشرة من عمره، عندما صعد الى المئذنة ليرفع أذان الفجر، فخاف وارتبك في ثنايا المئذنة خصوصًا عندما مرت من جانبه طائرات حربية اسرائيلية أغارت على قرية السموع قرب الجليل في ١٣-١١-١٩٦٦ ممّا جعله يبول في ملابسه، وعاد خائبا دون أن يرفع الأذان.

وبالتأكيد فإنه ليس من باب الصدفة أن يأتي قي الرواية أنّ السارد الروائي يسير يحيى خليل يقظان مولود في ١٣-١١-١٩٤٩ وأنّ العدوان الاسرائيلي على السموع كان في ١٣-١١-١٩٦٦ كما أنّ اسم السارد " يسير " وهو اسم غير مستعمل إلّا كلفظ عاميّ لكلمة أسير ليس عفويا هو الآخر أيضا.

وماذا بعد؟:

يبقى أن نقول أنّنا أمام عمل روائي رائع فنّا وشكلا ومضمونا، ويشكل إضافة نوعيّة للرّاوية العربيّة .